المحاضرة الثانية في المناهج اللسانية

المنهج التاريخي

إعداد: أ/د. محمد خاين

1-توطئة:

مما خلصنا إليه في المحاضرة السابقة أنّ المنهج قوام العلم، وأنّ كل منهج له نظرية يستند إليها، ويستمد منها شرعيته العلمية، وذلك انطلاقا من كونها تحدّد هوية العلم وموضوعه وتنظم عملياته وأدواره واتجاهاته، وذلك بالنظر إلى أنّها:" نسق فكري متسق يتمحور حول ظاهرة أو مجموعة من الظواهر المتجانسة"، يعمل على تفسيرها من خلال نسق استنباطي.

ولكنّ الممارسة العلمية تظهر الهوّة والشرخ ما بين ما نُظِّر له وما هو منجز فعليا، وبالتالي فإنّ هذا يوصل إلى تعدّد في المناهج وتنوّع لها، كما تُخضِع ضرورة الممارسة أيّ منهج مطبق إلى جملة من التكييفات، وهذا ما سنعمل على تجليته من خلال هذه المحاضرة، وذلك بغية فهم التنوع المناهجي الذي تعرفه اللسانيات.

2-وظيفةالمنهج في الدراسة اللسانية:

يتميز اللسان بكونه حدثا له نظام، يُوكَل له أداء وظيفة، ومن ثمّة فإن وظيفة اللسانيات بوصفها الدّراسة العلمية للغة البشرية من خلال الألسن الخاصة بكل قوم هي مراقبة ذلك الحدث اللساني، ودراسة الكيفية التي يحصل بها؛ مما يعني أن مهمتها البحث في الكيفيات التي يشتغل بها اللسان والآليات الموظفة في اضطلاعه بمهمته التبليغية. ولكي تؤتي تلك الدراسة أُكلها وتتَّسم بالموضوعية وتقدّم تفسيرا صادقا كان عليها أن تتم بوساطة منهج. وقد توخت هذه الدراسة المنهجية سبيلين ومرت بمرحلتين. وعليه فإن جهدنا سينصب على فهم موجبات استخدام اللسانيات للمنهجين التجريبي والعقلاني في إنتاج المعرفة الإنسانية.

3- المرتكزات التجريبية في الدراسة اللسانية:

التجربة مصدر من مصادر معرفة الواقع، ومن ثمة فإنها تحتل مركزا مفصليا في تكوين المنهج التجريبي:"إن التجريبية بوصفها منهجا تقتضي اتباع تعاليم التجربة من غير أفكار مسبقة ولا فرضيات معدة سلفا" وعليه أمكن تمثلها في مجال البحث اللساني وفق المعادلة الآتي بيانها:

-قضية رقم1:التجربة مصدر معرفة الواقع.

-قضية رقم 2:التجريبية اتباع لتعاليم التجربة.

-**النتيجة:** اللسانيات اتباع لتعاليم التجربة اللسانية قصد معرفة الواقع اللساني.

3-إشكالية البحث التجريبي اللساني:

وبما أن اللسان حدث في واقع تخبر عنه تجربة المتكلم مع كلامه، فإن التساؤل الذي يفرض حضوره ههنا: وما دام كذلك فمن الأولى بالإخبار عنه: أهو المتكلم صاحب الحدث أم اللساني مراقب الحدث؟ وهل يستويان(صاحب الحدث ومراقبه) في التعامل مع اللسان وفي ممارسته؟. وإنه على الرغم من بساطة السؤال فإنه يرسم معالم المنهج التجريبي في اللسانيات.

ولنا أن نتمثل تطبيقات المنهج التجريبي في الدراسات اللسانية عبر تمظهرين، الأول منهما تاريخي (تعاقبي) والثاني بنوي(آني).

ولكن قبل تقصي القول فيهما يجدر بنا الوقوف عند معالم البحث التجريبي اللساني:

1-إقصاء المتكلم صاحب الحدث.

2-ما يهم اللساني التجريبي الحدث اللساني فقط وليس منجزه.

3- المراقبة(الملاحظة) أداة الاختبار وتنوب عن التجربة في البحث وتكوين المعرفة اللسانية. ومرد ذلك اختلاف المادة اللسانية في واقع حدوثها عن باقي المواد، والتي من أهم خصائصها أنه يمكن تكرار التجربة دون أن تؤثر على المادة ومعطاها المعرفي على خلاف المادة اللغوية.

4- يسعى إلى جمع الوقائع اللغوية(الكلمات، العبارات، الوثائق) وتصنيفها وتبويبها ووضعها في مدونة، وعليه تكون المدونة مفهوما مركزيا ومفصليا في كل بحث تجريبي.

5- الحرص على إنشاء مدونة يستدعي بالضرورة الارتكاز على الاستقراء في الوصول إلى الوقائع اللغوية.

4-المنهج التاريخي(التعاقبي):

كان اكتشاف اللغة السنسكريتيَّة في أواخر القرن التاسعَ عشرَ الميلاديّ نقطةَ الانطلاق الحقيقي للمنهج التاريخيّ، الذي يرى أن الفهم الحقيقيَّ للظواهر اللغوية يقوم على النظر في تاريخها وتطوُّرها، ومن ثم سهولة ربط الجانب الوصفيّ بمسبباته التاريخيَّة، ومن ثم كان ينظر إلى اللغة المتكلَّمة - التي هي أساس الدراسة الوصفية - على أنها "شيء متغيَّر خدَّاع، وأن الجزء الثابت منها الذي يستحق الدراسة هو ذلك الموجود في اللغة المكتوبة "التي تمثِّل الأساس للمنهج التاريخي.

والبداية الحقيقية التي وصفنا به هذا المنهج - لها ما يسوِّغُها، وضمن هذا المنحى يقول روبنز: "من المألوف في علم اللغة أن يقال: إن القرن التاسع عشر كان عصر الدراسة التاريخية والمقارنة للغات، وبوجه أخص اللغات الهندوأوروبية، وهذا أمر مسوَّغ بشكل كبير، ولكن هذا لا يعني أنه لم تُجْرَ

قبلَ هذا الوقت بحوثٌ تاريخية تقوم على مقارنة اللغات، ولا أن كلَّ الجوانب الأخرى لعلم اللغة قد تم تجاهلها خلال القرن التاسع عشر، ولكنَّ المسألة هي أن هذا القرن قد شهد تطوُّرًا في المفاهيم النظرية والمنهجية الحديثة للسانيات التاريخية والمقارنة، كما أن التركيز الأكبر للجهود العلمية والمقدرة العلمية في علم اللغة كان مكرّسًا لهذا الجانب من الموضوع أكثرَ من غيره من الجوانب". ويتميز المنهج التاريخيَّ بدراسة حركة الظاهرة اللغوية بين عصرين أو أكثر؛ورصد مظاهر تطوُّرها ومسبَّباته.

ومن ثَمّ، فإن المنهج "التاريخي في الدرس اللغوي، عبارة عن تتبُّع أية ظاهرة لغوية في لغةٍ ما، حتى أقدم عصورها، التي نملك منها وثائقَ ونصوصًا لغوية؛ أي: إنه عبارة عن بحث التطور اللغويّ في لغةٍ ما عبر القرون، فدراسة أصوات العربية الفصحى مثلا دراسة تاريخية، تبدأ من وصف القدماء لها من أمثال الخليل بن أحمد، وسيبويه، وتتبُّع تاريخها منذ ذلك الزمان، حتى العصر الحاضر، دراسة تدخل ضمن نطاق المنهج التاريخيّ، ومثل ذلك يقال عن تتبُّع الأبنية الصرفية، ودلالة المفردات، ونظام الجملة "

وإذا أضفنا إلى ذلك أن اللغات تصيبها سُنَّةُ التطوُّر، فإن رصد مظاهر هذا التطور، والوقوف على أسبابه - من الأمور المهمة لفهم الحركة التاريخيَّة للُّغة، كما يوقفنا ذلك على الدلالات المتعددة التي لازمت اللفظَ عبر هذه العصور التاريخيَّة المتعددة.

ولا بد أن نشير إلى حاجة هذا المنهج للوصف بوصفه مهارة عقلية وأداة عابرة للتخصصات، إذ إن دراسة اللغة عبر هذه المراحل التاريخيَّة المتعددة تتطلب الوقوف بالوصف والتحليل للغة أو الظاهرة المدروسة فيها أولًا، ثم المرحلة التالية، ثم ما يليها، وهنا يأتي ربط هذه العمليات الوصفيَّة ببعضها بعضًا من خلال المنهج التاريخي.

إذ إنّ المنهج التاريخي يفيد في دراسة ألفاظ لغة قديمة متجذِّرة في عمق التاريخ كاللغة العربية؛ ليقف على الدلالات المتعددة التي لازمت ألفاظها، فصاحَبَتْها أو فارقتها، أو أضيفت بجانبها معانٍ ودلالات أخرى، أو أزاحتها دلالات أخرى وحلَّت محلَّها.

ومن ثَمَّ، فإننا مثلًا في هذه الحالة "ليست هناك فائدة في الاعتماد على المعجم وحدَه في معرفة معنى الكلمة واستعماله؛ لأنه - بكل بساطة - لا يضيف جديدًا سوى الحصر، إن كانت في الحصر جدة، ومن هنا فإنه من الأهمية حين صناعة المعجمات - خاصة التاريخية منها - الاتصال بالنصوص في أقدم مظانّها.

1-4-تجليات المنهج التاريخي في اللسانيات وتطبيقاته:

تكمن قيمة المنهج التاريخي في كون بعض الأبحاث والدراسات لا يصلح لها إلا هو لها؛ حيث إن ذلك مرتبط بالهدف من البحث؛ فإذا كان الهدفُ الوقوفَ على تطوُّر ظاهرة لغويَّة معينة، فلا شكَّ من فعالية هذا المنهج في الوصول إلى هذا الهدف، ومن ثم، يُعتمد عليه في قضايا وموضوعات لغويَّة منها ما يأتي:

- دراسة التغيُّرات الصوتيَّة في العربية، وتعدُّ دراسة صوتيَّة تاريخيَّة.

-دراسة صيغ الجموع في العربية بتتبُّع توزيعها وشيوعها في المستويات اللغويَّة المختلفة عبر القرون، وتعدُّ دراسة صرفية تاريخية.

-إعداد المعجم التاريخي، الذي يعمد إلى إيراد تاريخ كلِّ كلمة منذ أقدم النصوص إلى أحدثها، متتبعًا التطوراتِ التي تعتريها، من أهم الممارسات اللغوية التاريخيَّة، ويعدُّ معجم أكسفورد في اللغة الإنجليزية من المعاجم التاريخية المهمة.